الجغرافية البشرية والنص التراثي الإسلامي
مدينة النحاس نموذجا

لطيفة حجار
جامعة الجزائر

ارتكزت الدولة العباسية منذ نشأتها على نظام معرفي له قواعده وتقاليده، مستفيدة من ثقافات الشعوب والبلدان التي افتتحتها وإرثها المعرفي. مكنها من تسهيل عملية التدوين بانتشار دور الوراقة والتصنيف، حيث انكب العلماء العرب على تدوين تراثهم الجاهلي والإسلامي، وجمع كل شتات التراث الشفهي وكل ما كان مهملا من أخبار الأسلاف، ثم تلتها عملية الترجمة والتأليف الممنهج في مختلف العلوم، وتهيأت الأسباب وتضافرت الجهود لإيجاد ثقافة عربية إسلامية ثرية وجديدة بإسهامات القوميات الفارسية والتركية وغيرها من الأمم الأجنبية والتي وجدت في الإسلام حاضنا قويا فعالا ضامنا لحرية الفكر والبحث والإبداع.

كما ازدهر في العصر العباسي جنس أدبي أطلق عليه جغرافية دار الإسلام البشرية، اهتم به العلماء والإخباريون نظرا للتطور المتسارع

لأركان الخلافة على كل المستويات الفكرية والاقتصادية والسياسية، والانفتاح الكامل على ثقافات الأمم الأجنبية من أقصى المشرق ما بعد حدود الصين إلى أقصى المغرب في بلاد الأندلس، أثمر رصيدا معرفيا هائلا لمصنفات جغرافية عديدة أطلق عليها أسماء مختلفة، كعجائب الآثار وتقويم البلدان، والمسالك والممالك ومعاجم البلدان، لتعرف القارئ بمواقع المدن والبلدان وبحارها وجزرها في كل ممالك الأرض من الصين والهند إلى اليونان وإفريقيا والأندلس، وتقدم في صفحاتها أوصافا في غاية التدقيق لبعض خصائص البلدان والمدن والمنشآت المختلفة وأعمال الفن المعمارية وطباع السكان وعاداتهم وتصور مختلف أشكال الحيوانات الغريبة والعجيبة وغير ذالك من الطرائف والنوادر[1]، ضمن معرفة شاملة لعالم الأرض.

واستوعب علماء العرب مبحث الجغرافية على أنه موضوع مثل التاريخ، متواصل ومتسلسل في فصوله وأحداثه. وتتجلى فيه روح الأدب بالنزعة الإبداعية التي اكتسبها والطريقة التي شكل بها المؤلف نصوصه وأفكاره حول تلك المناطق النائية والمجهولة، حيث يتضاءل دور الجغرافية فيها وينسحب، ليسرد الأدب معطياته ويفسح للخيال مجاله ولتتحقق بعض مقاصد الوظيفة السردية، وليتحول إلى سرد من المرويات في المصادر العربية الأخرى المبثوثة والمتفرقة في معظم كتب التراث بشكل عام دون التخصيص، والعائد إلى النصوص المختلفة في أمهات الكتب يلحظ كيف أعيد صهرها ودمجها في وحدة خاصة بآداب اللغة العربية، اكتسبت طابعا جديدا مميزا له أنساقه في المعالجة وفي الوظيفة.

ونظرا لثراء تراثنا بالشواهد والأخبار والتضمينات المختلفة والآراء والمواقف والشهادات وما إلى ذلك من عوامل التثاقف. تشكلت وحدة ثقافية من خلال التعدد والتنوع، لها سماتها الفنية والروحية، وتسمو بفن السرد إلى حد الاكتمال والنضج، ويرى البعض أن السر في هذا السمو هو تعدد المدركات واختلاف كيفيات إدراكها لتعدد الحاجات والمقاصد وتعدد سياقات الاستعادة ووظائفها وظروفها وآلياتها[2]. وإذا كنا نرى الوقائع في عصرنا الحديث كما هي فإن الأمر عند القدماء مختلف تماما، فقد ترعرعت ذهنياتهم في الغيبيات وتأمل الخرافات، بل كانوا أصدقاء للحكاية الخرافية ومبتكرين لها[3]، ووجد المناخ الثقافي الملائم لانتشارها والاهتمام بها. والمطلع على سرديات الإخباريين يحس فعلا أنه أمام قصص خرافي عجيب ومنمق، يتمثل فيه السارد عالمه المروي بكل ترتيباته من استعادة وتشكيل وتركيب، وهذا النهج غني بزخمه التراكمي، لاسيما أن معنى العجيب يجب أن يفهم بمعنى واسع جدا، ليتضمن الحالات الغريبة البينة، وجميع الحالات التي تستمد غرابتها من الطريقة المثالية التي توضح بها حدثا معينا.

عولجت الرواية الجغرافية القديمة بنمطها الخاص السابق الذكر، في مختلف مصنفات الجغرافيين العرب بالطريقة نفسها، وما قدمه ابن الفقيه وابن سرابيون والقزويني والدميري[4] وغيرهم كثير لا يخرج عن الإطار الذي وضعه العصر لمختلف المعارف الجغرافية الإخبارية، وأمام تحريف المعلومات الواردة وافتقار المصنف للمعاينة الطبيعية، يروي لنا المؤلف أخبارا على السماع ليست بالدقة المطلوبة، يختار منها ما يستجيب لملكته الإبداعية في صياغة الوقائع وذكر الأحداث، فترد أسماء المواقع مصحفة، والمعلومات مشوشة لتعرض على أنها حقائق موثوقة، ومسلمات يقينية تلبي حاجة العصر في الاطلاع على الغريب عبر أعماق المجهول.

ولأنها أحداث تجري في أراض غريبة عن دار الإسلام، فكل ما يروى هو تأكيد على تمثلها ذهنيا وبعثها من جديد داخل النفوس بصور مختلفة وسياقات متنوعة ثقافيا وتاريخيا وحتى جغرافيا نظرا لتنوع البشر[5]، وتفاوت درجات استيعابهم للمعلومة المعطاة.

وأهم عنصر للمعرفة الجغرافية هو الرحلة والتطواف، لقد كان للتجارة البحرية في القرن الثالث الهجري وقبله أثرها البالغ في نمو المطامح الاستكشافية التي تستهوي المغامرين والتجار، وهي نموذج حي للنشاط البشري في البلدان المختلفة والمذكورة في رواياتهم ببساطة الواقع وعلى مدار السنة. إذ تقلع المراكب من سواحل جزيرة العرب الجنوبية من عدن وعمان وسيراف والبصرة باتجاه سواحل المحيط الهندي، مبحرة إلى أبعد نقاط الشرق و الغرب، لتعود من جديد إلى البصرة أو إلى أحد مرافئ البحر الأحمر أو المتوسط، لتقلع ثانية باتجاه شرقي إفريقيا نحو صقلية وجنوة وطرابلس وتونس والمغرب والأندلس، ويستمر الإبحار من شاطئ إلى شاطئ عبر مختلف السواحل العالمية، ناهيك عن الرحلات البرية عبر طرق القوافل شرقا وغربا شمالا وجنوبا من بلد إلى آخر، هي صورة لحالات سفر دائمة في الزمان والمكان وفي المراتب الاجتماعية لأن الرحلة ليست حكرا على فئة معينة دون أخرى وتتم بشتى وسائل النقل[6]، وقد تكبد الرحالة عناء التشرد والغربة والأخطار، باذلين كل ما في وسعهم وباستماتة من أجل تحقيق مبتغاهم المادي أو العلمي. بل عد البحريون منذ القدم مصدرا للعجائب والخيرات، وصيغ مثل ـ دوخ الأقاليم ـ طوى الأرض ـ ترد بتكرار في أخبار الأبطال منذ جلجامش إلى الإسكندر ذي القرنين الذي يعد في نظر الإخباريين نموذجا للقائد الرحال، الذي أخضع العالم لفتوحاته وكشوفاته عبر مناطق الأرض.

واستفاد العرب من كل مغامرات الباحثين في مجاهل الأرض مسهمين في إبراز ثقافة مزدهرة للعصر العباسي، تسبح في ملكوت ثقافة عظيمة أسس لها الرواد الأوائل، وأفادت في كثير من التغيير والانفتاح والمثاقفة من الباب الواسع. وجعلت من قصص الرحالة عملا إبداعيا يوجه منهجيا نحو الابتكار والخرافة، وقد أمضى هؤلاء ردحا من حياتهم في تجوال مستمر، يحفظون أسفارهم عن ظهر قلب في البلدان غير الإسلامية، بذكر أسماء بحارها وجزرها، وجبالها ووهادها، فكانت رحلة الحقيقة والخيال بإيحاءاتها العظيمة، وأثمرت مادة غزيرة محصلة سماعا أو معاينة، استوعبت أدبا عجائبيا وخرافيا أسس له القدماء، ليس في الفترة الإسلامية فحسب بل قبلها بزمن بعيد جدا. وقد أفادت جغرافية العجائب كثيرا في تقريب كل بعيد من ثقافات الشعوب، واستفاد الأدب منها كثيرا معتبرا إياها أساسا من أسسه الجوهرية، ودخلت هذه الأخبار مجالس القصاص وصفحات المصنفات، واستحالت إلى فن سردي عربي خالص متداول بقوة من طرف كبار العلماء، يرسم خرائط شبه مشوشة لأماكن جغرافية معروفة، ذكرت في معرض الغموض واللبس، وهي في الأصل أماكن دقيقة جدا، نصيب الواقعية فيها متجاوز على الرغم من صدق تقارير تلك السفارات، فاستحالت بناها السردية إلى خطاب حكوي خرافي[7] يردد أسماء مموهة تخفي وراءها أسرارا مجهولة استحالت إلى بلاد الواق الواق ومدينة النحاس وبحر الظلمات ووادي الذهب وعين الحياة. والنماذج على ذلك كثيرة تملأ كتب البلدان وقصص ألف ليلة وليلة.

ويعد كتاب أخبار الصين والهند مجهول المؤلف، المصنف عام 237 هـ من أقدم وأعظم القصص الواردة على لسان السفار، وهو سلسلة من الحكايات والصور تميزها العفوية والاستطراد ويصعب التحقق من صحتها لأنها خرجت عن إطارها الواقعي الطوبوغرافي وتجاوزت

الطريقة الجغرافية المرسومة لها لتتعلق بلا إرادية العجيب في بنيتها السردية. والعائد إلى هذه المواضيع ليتتبع خطوات الخبر فإنه يصل به إلى منتصف الطريق ليلاحظ أخبارا مبتورة أو ممزوجة بمصنفات أخرى أو إضافات مقحمة، يضاف لها التجاهل التام لإخباريي المصنف وعدم ذكر أسمائهم، بل انتحلت قصص المصنف على نطاق واسع، وأخذت طريقها إلى كتب الأدب جملة، وأذكر منها على سبيل المثال إعادة النظر في أخبار الصين والهند وإكمالها لأبي زيد السيرافي، وكتاب ألف ليلة وليلة من خلال رحلات السندباد[8].

وقد أورد ابن النديم في الفهرست[9] جردا كاملا لعناوين مؤلفات كثيرة تروي مغامرات العرب الأوائل نحو آسيا في رحلات استكشافية شرقا للهند وما وراءها. ميزتها روح التحدي و الاستكشاف، أثمرت أدبا جغرافيا مميزا سمته العجائبي والسحري[10].

وقد اخترت في هذا المقال نصا أدبيا ضمن جغرافية الإسلام البشرية يذكره القزويني في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، والنص المذكور يروى على لسان ابن الفقيه[11] الذي عاش في القرن الثالث الهجري، يذكر فيه خبر مدينة النحاس وموقعها ومغامرة الفاتحين العرب في كشف أسرارها، وقد تناول الكاتب القصة بشيء من الأهمية والحرص كون اكتشاف المدينة أوكل إلى القائد موسى بن نصير والي إفريقية آن ذاك، بتكليف من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وخروجه في حملة ضخمة من الرجال المجهزين عدة وعتادا.

فالزمن هو عصر بني أمية إبان فتوح إفريقية، لما كانت الأخبار ترد تباعا عن كنوز إفريقيا وخيراتها، تناقلتها أفواه الناس بالمبالغة والتضخيم، خاصة أن أكثر الفتوحات الإسلامية لإفريقيا تمت في عهد

الوليد بن عبد الملك إذ فتحت طليطلة وقرطبة بين سنتي 93 هـ و94 هـ، ودفعت بجموع المغامرين إلى التقدم نحو أعماق الأندلس، ونحو شمال أوروبا، وهي رحلات متنوعة الغايات جهادية واستكشافية ودعوية وتجارية، منها ما تم قبل عصر التدوين وترافق بعضها مع فترة الفتوحات المتعاقبة والمتتالية، وتناول الناس الروايات مشافهة عن أخبار الأندلس وكنوزها وخيراتها، بالزيادة والتضخيم والتوالد المستمر الأمر الذي جعلها حديثا أخاذا، أدخلها في إطار الحكاية الخرافية.

وابن الفقيه في تحقيقه للأخبار لم يكن مجرد كاتب سطور ينقل كل ما يقال، بل كان في عمله موثوقا واعيا بمنهجه ورؤيته الواضحة، فهو ابن فقيه أي محدث ملتزم بنطاق التعبير عن ثقافة الإسلام ومنهجها بصدق وأمانة. وقد أخذ وصفه طابعا سرديا في الإشارة إلى استمرار أداء الخلفاء في قيادة المجتمع المسلم وحثه على نشر العقيدة في كامل أصقاع الأرض، فالرؤية السياسية دوما قائمة والتعبئة للجهاد ومغامرة الفتح بتلك الإغراءات واردة.

وقد كان الخليفة عبد الملك بن مروان[12] واسع الاطلاع والثقافة، شغوفا بالأدب مشجعا للعلم والمعرفة مقتديا بسلفه معاوية بن أبي سفيان الذي كان يقرب العلماء من مجلسه ويستقدمهم من كل أصقاع الخلافة ليستفيد من معارفهم وينصت لأسمارهم.

وفي قصة مدينة النحاس المروي له هو الخليفة عبد الملك بن مروان والراوي موسى بن نصير، وبلغت الخليفة أخبار المدن العظمى وعجائبها، وقد سبق أن تدفقت الغنائم والأموال بأعداد ضخمة أرسلها القادة الفاتحون السابقون إلى عاصمة الخلافة، منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى عصور لاحقة للدولة الإسلامية منها كنوز كسرى، وكنوز الفراعنة،

ومنها مائدة سليمان بن داود عليه السلام المكتشفة في الأندلس. وخبر المائدة يطفو من جديد في قصة مدينة النحاس، لربطها بالحدث وأهميته، فهي تحفة شهيرة من ذهب وفضة عليها جواهر ولؤلؤ وجدها موسى بن نصير في قصر طليطلة، وقيل إنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام[13]. وخبر المائدة مدون ومفصل في ألف ليلة وليلة، أين وجدت وما كتب عليها من طلاسم.

وتتجلى غرابة المدينة في أسمائها أولا فهي تارة مدينة أكسيد الحديد وأخرى مدينة البهت (حجر الدهشة) ومرة مدينة (الصفر) نسبة للنحاس الأصفر، والغرابة الثانية في الصورة التي تعتري كل من حاول الوصول إلى قمة الأسوار تنتابه حالة من الضحك الهستيري حتى يقع من أعلى أرضا، وهذا يعود إلى حجر البهت الذي ينظر إليه يغلب عليه الضحك. وسمة اللامعقول في خبر مدينة النحاس يفرض نفسه منذ بداية القصة حتى نهايتها، وهذا لا يسلبها الحق في دراستها واحترامها كأثر أدبي يعبر عن وقائع لأحداث تصور مجاهل الأرض ضمن أدب الرحلات، منجزة وظيفة إخبارية استطلاعية، تحكي لنا أفعال البطل الراوي وهو الفاتح موسى بن نصير أمير إفريقيا، يروي لنا إنجاز مهمة استكشافية أثناء فتوحاته، فالقصة جزء من تراثنا، حتى وإن بدت عادية في لغتها متداخلة في سردها، حيث تقدم الراوي وكأنه متردد في حبك قصته بما يقنع الخليفة بمهمته، والتي لم تتم كما أريد لها، ولم يسعفه الحظ في الحصول على كنوز سليمان المرصودة، بل عرض عليه خبرا عجيبا معلقا بين حبال الحقيقة[14] والوهم، انفلت عن أسسه الجغرافية المعقولة ليقدم معلومات غير قابلة للتفسير وبدل أن يتوقف عن سرد الوهم ويوجز كلامه بسطر ...(لم أعثر على المكان) ويتخلص من ادعاءاته، واصل القصة مستعينا بمعلومات العجائب

والغرائب عن القصور المرصودة والعفاريت المصفدة، بما يستهوي المتلقي القديم لما لا يعرف عن تلك المناطق، فهو متأثر جدا بما تعرضه عليه اللغة السردية من مستويات في التعبير تملؤه دهشة وفضولا فلا ينتابه أدنى اعتقاد يضعها موضع شك[15].

وقد اخترت نص المدينة من مدونة القزويني الذي اقتصر دوره عن نقل الخبر فقط، دون تبديل أو تحوير ولا تعليق أو تعقيب وهو كاتب معروف وموهوب في انتقاء النقول المبعثرة، والركض وراء القصص العجيب، والنصوص المتداخلة ليعرضها بطريقة نادرة، تمثل منهجه في التصنيف، والخبر مختصر ومحدد العناصر نقله من كتاب ابن الفقيه المفقود، وهو قصة كاملة بكل عناصرها السحرية والعجائبية في كتاب ألف ليلة وليلة تمثل سردا مطولا، يبدأ من الليلة ستمائة واثنين إلى ستمائة وثلاثة وعشرين، والقصة تتطلب دراسة نقدية تفكيكية جادة على غرار ما حظيت به حكايات كثيرة من الليالي بالدراسة والاهتمام.

مدينة النحاس ذلك الحيز الجغرافي الموجود في مجاهل أفريقيا وفي أقصى الأندلس، استحال إلى فضاء خرافي لمدينة أو ربما لقصر شامخ بناه ملوك أوروبا القديمة، وصاغ الراوي أحداثه من أقاويل وأحاديث رويت له ضمن السحري الاغترابي، في مزج بين الصور الطبيعية والصور العجيبة.

ولما أخفق البطل الحقيقي بقدرته الفائقة في بلوغ مبتغاه واقتحام أسوار المدينة، وانغلق حسبه الأمر المستحيل، وكادت المهمة تبوء بالفشل، فجأة انفتحت حدود الفضاء على الخرافة إلى أبعد مجالاتها وتحقق المستحيل بانفتاح كامل على الخيال، وأوكلت الأدوار إلى الجن والعفاريت، في البناء والتشييد ووضع الطلاسم والحراسة والحظر الكامل على بني البشر، وفي استحالة لبلوغ أسوارها أو اقتحام أسرار عالمها المجهول

تكمن المهمة الصعبة على الأبطال، فموسى بن نصير الفاتح الأعظم، لم يحقق مهمة استكشافية بشكل معقول ومنطقي وكأنه يخفق في أداء مهمة بسيطة، وهو الذي دوخ الأقاليم الإسبانية بانتصاراته رفقة قائده طارق بن زياد وإنجازاته القتالية تشهد بذلك. ولما كانت الذهنية الشعبية تعمل على محور المتخيل فإن المغامرة الخيالية لكشف أسرار مدينة النحاس ستتساوى مع مغامرة أبطالها في تحدي أكبر عملية استكشافية، ترسم ملامحها ذهنية العصر الوسيط بكل ما أوتيت من إبداع وابتكار، فهي تؤمن بقدرة العفاريت والجن على تحقيق أي فعل شاءت. وتؤمن أن قدرة الأبطال على خرق المجهول وتخطي الصعاب أمر ممكن.

ولما كان النص الرسمي والأصلي عند ابن الفقيه، والمسعودي يؤكد أن الرحلة لم تكن موفقة ولم تحقق المطلوب، ويذكره المسعودي على الشكل التالي: في عجائب الدنيا وأخبار البيوت السبعة التي ببلاد الأندلس يقول: مدينة الصفر وقبة الرصاص... وتعذر الملوك الوصول إليها وما كان من أمر صاحب عبد الملك بن مروان... وتهافت المسلمين عند الطلوع إلى سورها وإخبارهم عن أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة... انتهى خبر المسعودي باختصار شديد[16]، بينما أخذت مدونة ألف ليلة وليلة القصة من منظورها الشعبي ومن نصوص شعبية عديدة، لينفتح سرد الأحداث على حياة مكتظة بالحركة لأبطال مختلفين من كل المراتب الاجتماعية، كشخصية الدليل عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودي البربري العارف بالبراري والقفار، والذي أرشدهم للمكان وكشف لهم طلاسم النجاة للقدرة على اقتحام الأسوار لأن المدينة مرصودة من الجن ولابد من قراءة تعاويذ تفك السحر[17]، كما أسندت للعفاريت والجن أدوارها المنوطة بها كالنهي والحضر[18] من اقتحام الأسوار والتهديد بالحرق أو المسخ،

وهذا الإجراء التقني من سمات الحكاية الشعبية ككل وفي ألف ليلة وليلة تردد فكرة المحظور في أغلب أحداث الليالي، وبتداخل منابع الأخبار عبر النصوص المتعددة شفاهية أو مكتوبة، تنتهي قصة موسى بن نصير بالعودة إلى الشام محملا بكنوز سليمان وقماقم العفاريت المختومة بالرصاص (انظر ألف ليلة وليلة وقصة مدينة النحاس). وفيما يلي النص الأصلي للخبر يذكره القزويني عن ابن الفقيه:

قال القزويني[19]: مدينة النحاس ويقال لها مدينة الصفر، لها قصة عجيبة مخالفة للعادة جدا ولكني رأيت جماعة كتبوها في كتب معدودة، قال ابن الفقيه : ذهب العلماء الأقدمون إلى أن مدينة النحاس بناها ذو القرنين وأودعها كنوزه وطلسمها، فلا يقف عليها أحد، وجعل داخلها حجر البهتة[20] وهو مغناطيس الناس، فإن الإنسان إذا وقف حذاءه جذبه كما يجذب المغناطيس الحديد ولا ينفصل عنه حتى يموت، وإنه في مفاوز الأندلس، ولما بلغ عبد الملك بن مروان خبر مدينة النحاس وخبر ما فيها من كنوز، وإن إلى جانبها بحيرة فيها كنوز كثيرة وأموال عظيمة، كتب إلى موسى بن نصير عامل المغرب، وأمره بالمسير إليها والحرص على دخولها وأن يعرف حالها ودفع الكتاب إلى طالب بن مدرك[21] فحمله إلى موسى وهو بالقيروان، فلما قرأه تجهز وسار في ألف فارس نحوها فلما رجع كتب إلى عبد الملك:

بسم الله الرحمان الرحيم أصلح الله الأمير صلاحا يبلغ به خير الدنيا والآخرة : أخبرك يا أمير المؤمنين أني تجهزت لأربعة أشهر وسرت في مفاوز الأندلس، ومعي ألف رجل حتى أوغلت في طريق قد انطمست، ومناهل قد اندرست وعفت فيها الآثار، وانقطعت عنها الأخبار فسرت ثلاثة وأربعين يوما إلى مدينة لم ير الراؤون مثلها،

ولم يسمع السامعون بنظيرها فلاح لنا بريق شرفها من مسيرة ثلاثة أيام، فأفزعنا منظرها الهائل وامتلأت قلوبنا رعبا من عظمها وبعد أقطارها. فلما قربنا منها إذا أمرها عجيب ومنظرها هائل، فنزلنا عند ركنها الشرقي ثم وجهت رجلا من أصحابي في مائة فارس وأمرته أن يدور حول سورها ليعرف بابها، فغاب عنا يومين ثم وافى اليوم الثالث فأخبرني أنه ما وجد لها بابا ولا رأى إليها مسلكا فجمعت أمتعة أصحابي إلى جانب سورها وجعلت بعضها على بعض لأنظر من يصعد إليها فيأتيني بخبر ما فيها، فلم تبلغ أمتعتنا ربع الحائط وجعلنا لارتفاعها فأمرت عند ذلك باتخاذ السلالم وشد بعضها إلى بعض بالحبال ونصبتها إلى الحائط وجعلنا لمن يصعد إليها ويأتيني بخبر ما فيها عشرة آلاف درهم، فانتدب لذلك رجل من أصحابي يتسنم ويقرأ ويتعوذ فلما صار على سورها وأشرف على ما فيها قهقه ضاحكا ونزل إليها فناديناه أن اخبرنا بما فيها وبما رأيته فلم يجبنا. فانتدب رجل من حمير وأخذ الدنانير ثم صعد فلما استوى على السور قهقه ضاحكا ثم نزل إليها فناديناه أن اخبرنا بما ترى فلم يجبنا. فصعد ثالث وكان حاله مثل حال الرجلين فامتنع أصحابي بعد ذلك من الصعود فلما أيست عنها، رحلت نحو البحيرة وسرت مع سور المدينة، فانتهيت إلى مكان من السور فيه كتابة بالحميرية فأمرت بانتساخها فكانت:

ليعلم المرء ذو العز المنيع ومن يرجو الخلود وما حي بمخلود

لو أن حيا ينال الخلد مهل لنال ذاك سليمان بن داود

سالت له العين عين القطر فائضة فيه عطاء جزيل غير مصرود

وقال للجن أنشوا فيه لي أثرا يبقى إلى الحشر لا يبلى ولايودي

فصيروه صفاحا ثم ميل به إلى البناء بإحكام وتجويد
وأفرغوا القطر فوق السور منحدرا فصار صلبا شديدا مثل صيخود
وصب فيه كنوز الأرض قاطبة وسوف تظهر يوما غير محدود
لم يبق من بعدها في الأرض سابغة حتى تضمن رمسا بطن أخدود
وصار في قعر بطن الأرض مضطجعا مضمنا بطوابيق الجلاميد
هذا ليعلم أن الملك منقطع إلا من الله ذي التقوى وذي الجود

قال : ثم سرت في قعر حتى وافيت البحيرة عند غروب الشمس فإذا هي مقدار ميل في ميل، كثيرة الأمواج فإذا رجل قائم فوق الماء فناديناه : من أنت ؟ فقال : أنا رجل من الجن كان سليمان بن داود حبسه والذي في هذه البحيرة، فأتيته لأنظر ما حاله قلنا له : فما بالك قائما فوق الماء؟ قال سمعت صوتا فظننته صوت رجل يأتي هذه البحيرة في كل عام مرة، وهذا أوان مجيئه فيصلي على شاطئها أياما ويهلل الله ويمجده قلنا: من تظنه؟ قال أظنه الخضر عليه السلام، فغاب عنا فلم ندر كيف أخذ قال: وكنت أخرجت معي عدة من الغواصين فغاصوا في الماء فرأوا حبا مطبقا رأسه مختوما برصاص فأمرت به ففتح، فخرج منه رجل من صفر على فرس بيده رمح مطرد من صفر فطار في الهواء وهو يقول: يا نبي الله لا أعود ثم غاصوا ثانية وثالثة فأخرجوا مثل هذا، فضجوا خوفا من قطع الزاد فأخذت الطريق التي سلكتها أولا حتى عدت إلى القيروان والحمد لله الذي حفظ لأمير المؤمنين أموره وسلم له جنوده والسلام.

قال : فلما قرأ عبد الملك كتاب موسى وكان عنده الزهري[22]، قال له: ما تظن بأولئك الذين صعدوا السور؟ قال الزهري: يا أمير

المؤمنين لأن لتلك المدينة جنا قد وكلوا بها؟ قال فمن أولئك الذين يخرجون من الحباب ويطيرون؟ قال أولئك مردة الجن الذين حبسهم سليمان بن داود عليه السلام في البحار هذا ما رواه ابن الفقيه.

ويضيف أبو حامد الأندلسي الغرناطي على ما ذكره ابن الفقيه قائلا: دور مدينة النحاس أربعون فرسخا وعلو سورها خمسمائة ذراع فيما يقال، ولها كتاب مشهور في كتابها أن ذا القرنين بناها والصحيح أن سليمان بن داود عليه السلام بناها. وليس لها باب ظاهر وأساسها راسخ، وأن موسى بن نصير وصل إليها في جنوده وبنى إلى جانب السور بناء عاليا متصلا به، وجعل عليه سلما من الخشب متصلا بأعلى السور، وندب إليه من أعطاه مالا كثيرا. وأن ذلك الرجل لما رأى داخل المدينة ضحك وألقى نفسه في داخل المدينة، وسمعوا من داخل المدينة أصواتا هائلة، ثم ندب إليه آخر وأعطاه مالا كثيرا وأخذ عليه العهد أن لا يدخل المدينة ويخبرهم بما يرى، فلما صعد وعاين المدينة ضحك وألقى بنفسه فيها وسمعوا من داخلها أصواتا هائلة أيضا، ثم ندب إليه رجلا شجاعا وشد في وسطه حبلا قويا، فلما عاين المدينة ألقى نفسه فيها فجذبوه حتى انقطع الرجل من وسطه، فعلم أن في المدينة جنا يجرون من علا السور فأيسوا منها وتركوها.

والأمثلة عديدة تحكي قصة المدينة العجيبة، كلها تحمل الطرافة والغرابة وتشكل اقتباسات من نصوص مختلفة، وإن كان عنوان الكتاب جغرافي بحت يبحث في آثار البلاد ومسالك الممالك، فإن الأماكن التي يعرفها الكاتب تكشف أسلوبه وطريقته في ترسيخ ثقافة المغامرة والاكتشاف وسعة المخيلة جغرافيا، ونزولا عند رغبة قرائه في خلق فضاء سحري يستدرج إعجابهم، ينسج عالمه من مواضيع أدبية

وتاريخية وجغرافية في محصلة أسلوبية خاصة بأدبيات العصر، والصيغة العجيبة على النمط المعروض آنفا نثرا و شعرا بعيدا عن آليات الكتابة الفنية، هي مرآة عاكسة لأدب الجغرافية البشرية الذي ينقل الخبر بمواصفات مغرقة في الخيال.

فالمدينة المشيدة من عدة دور ومحاطة بأسوار عالية، وتقوم العفاريت بحمايتها من كل غريب، هي فعلا مدينة لغز، قاتلة الغرباء بطريقة عجيبة، كل من يبلغ أعلى السور يقهقه ويهوي أرضا وكأن قوة غير مرئية تسحبه إلى الأسفل فينقض ميتا، والصورة كما عرضت لا تبقى نفسها غامضة مبهمة بل ربط ذلك بحجر البهت الذي سمع عنه أن من يراه يقهقه حتى يسقط، وتتضح خطوط القصة أكثر في نص ألف ليلة وليلة بإدراج أبطال ثانويين من الجنس اللطيف[23] داخل أسوار المدينة، وهن يقدن عملية إغواء الفضوليين الذين يطلبون نعيم الدنيا من الغنيمة وثواب الآخرة من الجهاد في الفتح[24] ليكشف لنا علة وقوع المتسلقين صرعى.

ويطرح نص ابن الفقيه أيضا اللبس في من أقام المدينة وأنشأها ومن سكنها من الأمم، وأمام قلة المصادر القادمة من إفريقيا عن تاريخ فترة ما قبل الإسلام، اختلفت روايات الإخباريين بتعابير الزمان والمكان، وفسح المجال للخرافة في التعديل والترميم. بعكس الأمر المتعلق بمدونات الشرق الأقصى التي كانت متوفرة بمختلف السبل والأشكال، بل فسحت مسالك الهند وممالكها الطريق السهل لمعرفتها والتواصل مع أفرادها، وقد أعطت لنا عجائب الهند[25] أدبا مستفيضا بالمعلومات والشواهد.

والأمر في مدينة النحاس لا يبقى رهن الصدفة والتردد ومعضلة تقصي الحقائق ليست عائقا أمام راوي الخبر، فقوة الزمن المغامراتي تكمن في الزمن الخاص لتدخل القوى اللاعقلانية في حياة الإنسان[26] حيث القوى الخارقة تتدخل لتبني المدن وتشيد الأبراج والحصون في لمح البصر، وبناء مدينة حصينة في مكان خال ومعزول لا يتسنى إلا لشخص نافذ وقوي له تاريخ عريق عبر الزمن، فنسبتها لذي القرنين أو سليمان في كلتا الحالتين، الشخصيتان بلغ ملكها أطراف الأرض حسب اليقين العام لكل فرد منا، فهما من ملوك العالم المشاهير، ودون البحث عن التفاصيل فالبعد المكاني والزماني المقدر بمطلع الشمس إلى مغربها كاف بتحديد مدى شساعة ملك ذي القرنين أو سيدنا سليمان عليه السلام، فذو القرنين بلغ أقصى حدود الصين وبنى مدن الشرق كلها، ونقلته الأسطورة غربا إلى أقاصي العالم الغربية بما فيها مدينة النحاس[27]، وقد بلغ أيضا ملك سليمان عليه السلام أنحاء العالم، وأشير إلى بصمات آثاره في أماكن كثيرة من الأرض، كتدمر والإسكندرية واللد وهمذان واليمن وإصطخر إضافة إلى بيت المقدس، وقد ذكرت أسماء إقامات واستراحات عديدة لسليمان في مناطق متفرقة من الأرض ونسب لجنوده من الجن بناءها[28]. وإن كان ذو القرنين التاريخي محل خلاف كبير بين علماء الإسلام حول شخصيته هل هو الاسكندر المقدوني بن فيليب اليوناني أم هو إسكندر الملقب بالصعب بن ذي مراثد الحميري اليمني من التبابعة[29] أو هو غير هذين الإسمين، بل ذكرت له ألقاب كثيرة أثارت جدلا كثيرا حول صدقيتها، (ينظر فيها كتب السير والتاريخ)[30]. غير أن خبرا عابرا في مدينة النحاس يذكر اكتشاف كتابة بالخط الحميري عند السور، فهذا يعني أن ذا القرنين في القصة هو اليمني الحميري وليس اليوناني[31].

ثم ينسحب الكاتب من موضوع مدينة النحاس ليطرق موضوع البحيرة، والشيخ الجني الذي فوق الماء منتظرا قدوم الخضر عليه السلام المعروف بالحي الغائب، وصاحب ذي القرنين، ليكون قد نفذ من عدة مستويات مفتوحة وقابلة للتطور في مسارات مختلفة أتيحت له، فمن قصة الخضر مع ذي القرنين، اقتنع الإنسان القديم بحقيقة الموت وأنه ابن الفناء، وأن الخلود من نصيب الخضر عليه السلام، وعودة ذي القرنين مستسلما راضيا بمحدودية الحياة في الجسد، يائسا من البحث عن جواب آخر لحقيقة النفس البشرية. اللوحة الثانية صورة الماء مقترنة بالبحيرة هي صورة الخضر مع ماء الحياة، الصورة الكونية المتداولة في كل البقاع. وتتدرج الصور التراتبية، من شخصية الخضر إلى قصة العفاريت المسجونة في أعماق البحيرة، وينتمي خبر الجن إلى الوحدة الأولى مع سليمان ومدينة النحاس، فالبنية النصية الأولى مع البنية النصية الثانية في فضاء البحيرة، شكلت هاجسا لمسألة الحقيقة في الحياة وما بعدها، وهاجسا لحقيقة الإنسان والمخلوقات الأخرى وهاجسا آخر لحقيقة ما يروى من أخبار وافدة على الثقافة الأم، وقد رافقت هذه الأخبار ذهنيات العامة منذ عصور قديمة جدا وتعلقت بها ولا ترضى بديلا عنها.

وأقحمت في النص أبيات شعرية موضوعة حاملة لدلالات وعظية، لتنبيه الغافلين بالمقاصد الدينية، وتذكيرهم بزوال النعم والفناء، ولا بقاء إلا لله الواحد الأحد، وأن الخلود المنشود لم يحققه الملوك والجبابرة لأنفسهم، ومثل هذه الأشعار تتماثل مع أبيات كثيرة قيلت في هذا السياق وتناولت المضامين نفسها تملأ صفحات الليالي، هي أشعار القبوريات قيل وجدت منقوشة على شواهد القبور والمعابد أو على جدران القصور في اليمن وفي إصطخر، وهي علامات بمثابة

التوقيع على وفات كل كائن حي. ويذكر الهمذاني في خبر ذي القرنين قائلا عن وهب بن منبه: لما رأى ذو القرنين الموت وأيقن به في قفوله يريد اليمن نعيت له نفسه فعلم به الخضر عليه السلام : ياذا القرنين انقضى الأمل وحان الأجل وبقي العمل[32]. وقال ذو القرنين إثرها قصيدة تبلغ أربعمائة بيت استعدادا للموت، كلها وصايا لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها من اعترافات ورثاء لنفسه، كلها صيغت على لسانه، وهي أشعار موضوعة للغاية نفسها والتأكيد على طبيعيتها الدينية.

لم أقدم تحليلا شاملا للموضوع، وإنما عرضت رؤية متواضعة لبعض فنون السرد العربي حول التجربة الإسلامية الجغرافية والنموذجية في تقريب أطراف الأرض للقارئ العربي لتكون الشاهد الأمثل على ذلك، والتي أسس لها الخلفاء الأوائل تمهيدا لفتح البلدان ونشر دين الإسلام، ومعرفة مواقعها وحدودها وثقافتها لتسهل عملية بسط النفوذ والتوسع، ويمكن لأي باحث أن يدرسها بتفصيل أكثر وتجريب أعمق.

ومن خلال رصدنا لجهود القدماء في مجال البحث والتقويم، نثمن أعمالهم الرائدة في حقول المعرفة، التي أنقذوا من خلالها التراث القديم من الضياع والنسيان وحاولوا مخلصين جمعه وتدوينه وترجمته، وأدت جهودهم في مجال المعرفة إنجازا له آثاره العديدة على هذه المجالات، ودفع بهم حب اللغة العربية وشغفهم بها إلى حب العلم ورعاية الفنون، فأرسلوا البعثات في طلب العلماء من كل أصقاع الأرض ومن مختلف الجنسيات، العرب والفرس واليونان، وجلبوا المخطوطات من الإسكندرية وبابل، ومن الأديرة والكنائس لنقل مختلف العلوم إلى العربية. وأدت صياغة التراث العربي الإسلامي في مجملها إلى خلق منظومة مفاهيم قيمة منها أن أي تراث لا يتطور دون توارث للمعارف والخبرات السابقة.

الهـــوامـــش

1. ميخائيل باختين: *"الزمان والمكان في الرواية"*، ص 10

2. إبراهيم صحراوي، *"السرد العربي القديم"*، ص: 38.

3. إحسان سركيس : *"الثنائية في ألف ليلة وليلة"*، ص22 .

4. ابن الفقيه *"كتاب البلدان"*، ابن سرابيون كتاب "عجائب الأقاليم السبعة"، القزويني كتابي *"آثار العباد"* و "كتاب عجائب المخلوقات" والدميري *"حياة الحيوان الكبرى"* مقتبس عن كتاب "الحيوان" للجاحظ، وكتب كثيرة كابن حوقل كتاب "صورة الأرض" وابن خرداذبة *"المسالك والممالك"* وابن فضلان *"رسالة في وصف رحلة إلى بلاد الترك وروسيا"* أبو الفداء *"تقويم البلدان"*، أبو دلف *"مسعر التعليق على الطريق الآسيوي البكري"* وصف افريقيا الشمالية ابن دحية رحلة إلى بلاد النورمانديين في جوتلاند نقلها الغزال.

5. إبراهيم صحراوي :المرجع نفسه، ص: 208-209.

6. أندريه ميكال : *"جغرافية دار الإسلام البشرية"* ج1ص208

7. عبد الله إبراهيم: *"النثر العربي القديم"*، ص 91 .

8. أندريه ميكال: *"جغرافية دار الإسلام البشرية"*، : ج1، ص: 216 . أبو زيد السيرافي التقى المسعودي في البصرة لفترة قصيرة وتبادل معه أخبار الهند والصين وفي رأي آخر أخذ عن المسعودي الكثير .

9. ابن النديم : *"الفهرست"* ص 410 حتى 510 .

10. ينظر بخصوص هذا الموضوع مقال زفيتان تودوروف: *"الغرائبي والسحري"* ترجمة أحمد منور مجلة اللغو والأدب عدد18 ص25.

11. ابن الفقيه أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني من أهل الأدب له كتاب "*البلدان*" في خمس مجلدات بقي منه مصنف واحد مختصر للمسمى علي الشيزري ، وسلخ ابن الفقيه كتاب الجيهاني- ابن النديم: الفهرست ص 675 . اندريه ميكال ج1 ص252 .

12. السيوطي: "*تاريخ الخلفاء*"، ص200 .

13. ابن تغري بردي: "*النجوم الزاهرة*"، ج1، ص: 222، ص:226.

14. عبد الملك مرتاض: "*ألف ليلة وليلة*"، ص: 33.

15. "*مجلة اللغة والأدب*" ص41 .

16. المسعودي: "*مروج الذهب ومعادن الجوهر*"، ج:2، ص:295.

17. "*ألف ليلة وليلة*"، الليلة 604 .

18. إحسان سركيس: "*الثنائية في ألف ليلة وليلة*"، ص179 .

19. القزويني، "*آثار البلاد وأخبار العباد*"، ص 558، 559، 560

20. البهتة: الدهشة والحيرة وحجر البهت الذي صنعت منه مدينة النحاس حجر يتلألأ، ويسمى حجر الضحك سمي بذلك إذا وقع عليه نظر الإنسان غلب عليه الضحك حتى ينقطع نفسه فيموت وزعموا أنه مغنلطيس الإنسان. رينهارت دوزي تكملة المعاجم العربية ص 460

21. طالب بن مدرك: "*في ألف ليلة وليلة*" يتحول إلى طالب بن سهل اليلة 602 .

22. الزهري 50 ه 124 ه :محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة من تابعي أهل المدينة من الطبقة الرابعة وكان حافظ زمانه ومن أصحاب السير وقيل عنه أنه قال :

ما صبر أحد على العلم صبري ولا نشره نشري، جالس عبد الملك بن مروان ثم هشام ثم يزيد ابني عبد الملك الذي كلفه بتولي القضاء، ابن قتيبة: المعارف ص472، ابن النديم : الفهرست ص432 ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج1، 294.

23. "*الليلة*" 616 .

24. المسعودي : "*مروج الذهب*" ج2 ص295 .

25. آدم ميتز: "*الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري*"، ج2 ص 7 و8 .

26. باختين: "*أشكال الزمان*"، ص 19 .

27. أندريه ميكيل : نفسه ج1، ص 266. وقد ترجمها دوزي واهتم بها في تكملة المعاجم العربية .

28. نفسه، ج1، ص:396. جورجي كنعان : "*والمسيح هو المشكلة*"، ص 149، 150 .

29. سيد القمني: "*الأسطورة والتراث*"، ص:214.

30. ينظر في موضوع ذي القرنين تاريخ الطبري ابن كثير البداية والنهاية، الشهرستاني الملل والنحل ابن تيمية الرد على المنطقيين.

31. سيد القمني نفسه ص218 .

32. الهمذاني: "*الإكليل*" ص 187 .

المصـــادر والمـــراجـــع

1. أبو الحسين علي المسعودي، "*مروج الذهب*"، طبع وحدة الرغايا للطباعة والنشر، الجزائر 2007 م

2. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: "*المعارف*"، تحقيق د.ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة دار المعارف مصر ب ت

3. أبو محمد الحسن الهمذاني "*الإكليل*"، حرره وعلق حواشيه نبيه أمين فارس، دار العودة بيروت

4. محمد ابن إسحاق النديم : "*الفهرست*" حققه وقدم له د. مصطفى الشويمي، الطباعة الشعبية الجزائر 2007 م.

5. جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، "*النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*"، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية سلسلة تراثنا.

6. الحافظ جلال الدين السيوطي، "*تاريخ الخلفاء*"، دار الفكر، دمشق 1974 م 1394 هـ

7. "*ألف ليلة وليلة*"، منشورات مكتبة الحياة بيروت.

8. زكريا بن محمد بن محمود القزويني، "*آثار البلاد وأخبار العباد*"، دار صادر، بيروت 1960 م 1380 هـ

9. إبراهيم صحراوي: "*السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات*"، منشورات دار الاختلاف طبعة أولى 2008 م 1429 هـ

10. إحسان سركيس: "*الشائية في ألف ليلة وليلة*"، دار الطليعة، بيروت ط أولى، 1979 م.

11. أحمد يوسف: "*الدلالات المفتوحة مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة*"، منشورات الاختلاف 2005 م.

12. آدم ميتز : "*الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري*"، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط ثالثة لجنة التأليف والنشر القاهرة 1957 م 1377 هـ.

13. أندريه ميكال، "*جغرافية دار الإسلام البشرية*"، ترجمة إبراهيم الخوري، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق 1983 م.

14. جورجي كنعان، "*والمسيح هو المشكلة*"، طبعة أولى 2001 م.

15. رينهارت دوزي: "*تكملة المعاجم العربية*"، نقله إلى العربية د.محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والفنون العراق 1978 م.

16. سيد محمود القمني، "*الأسطورة والتراث*"، دار سينا للنشر، طبعة ثانية 1993 م.

17. عبد الملك مرتاض، "*ألف ليلة وليلة*"، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال، بغداد ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993 م

18. عبد الله إبراهيم، "*النشر العربي القديم*"، بحث في ظروف النشأة وأنظمة البناء، منشورات جامعة 7 أفريل طبعة أولى 1425 هـ.

19. ميخائيل باختين: "*الزمان والمكان في الرواية*"، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1990 م.

20. "*مجلة اللغة والأدب*"، العدد 18 جامعة الجزائر، نوفمبر 2008 م 1429 هـ.